الفصل الأول

مولد الحضارة ونشأتها

- منذ أقدم العصور حتى بدء الأسرة الأولى حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م.

خريطة مصر القديمة، تبين المدن الرئيسية وأماكن من عصر الاسر (ج)٣١٥٠ قبل الميلاد إلى ٣٠ قبل الميلاد

obeikandl.com

obeikandl.com

مولد الحضارة ونشأتها

طبيعة أرض مصر - أقدم العصور والحضارات - أهم المصادر لدراسة تاريخ مصر الفرعونية

(منذ أقدم العصور حتى بدء الأسرة الأولى حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م.)

عند ملتقى آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وحيث يتصل البحران الأبيض والأحمر يجرى نهر النيل ، ذلك النهر الكريم الوهاب ، وعلى شاطئيه يعيش المصريون منذ آلاف السنين يزرعون الأرض الخصبة المباركة .

ومن آلاف السنين أيضاً بدأ المصريون يخطون نحو المدنية ، وكانت خطاهم وئيدة فى البداية ، ثم أخذوا يسرعون فى تلك الخطى وكونوا حضارة هى ما نسميه الحضارة المصرية التى نشأت وترعرعت فى وادى النيل ، ولم يقتصر خيرها على المصريين وحدهم بل كان لها فضل غير قليل على من اتصل بالمصريين من الشعوب. ومن الخطأ أن يعتقد إنسان أن المصريين عاشوا فى وحدة ولم يتصلوا بغيرهم ، أو أنهم لم يتأثروا بمن كان يعيش فى ذلك الحين من شعوب الشرق القديم ، ولكن ذلك الاتصال كان محدود الأثر . ويمكننا أن نتتبع تطور تلك الحضارة على مدى الأجيال ، ولكن قبل أن نتكلم عن تاريخ مصر الفرعونية وحضارة المصريين القدماء منذ أقدم العصور يحسن بنا أن نقف قليلاً لنلم ببعض ما يجب الإلمام به عن طبيعة وادى النيل ، وبخاصة الجزء الأسفل منه ، وهو ما يسمى بأرض مصر .

طبيعة أرض مصر :

يرتبط تاريخ أى شعب إرتباطاً كبيراً بطبيعة أرضه ، ولهذا وجب علينا أن نلقى نظرة على طبيعة الأرض المصرية لنعرف مدى أثرها على حضارة تلك البلاد ، إذ أن لطبيعة الأرض أثراً عظيماً على تطور حضارتها ، بل أن هذا الأثر ما زال مستمراً إلى يومنا هذا ، وله وزن كبير فى تطور أحداثها التاريخية .

وإذا ألقينا نظرة على خريطة الإقليم المصرى فى الجمهورية العربية المتحدة لوجدنا أن مصر تتكون من سبع مناطق جغرافية وهى (١) :

١ – وادى النيل ، بما فيه الدلتا والصعيد .

٢ – محافظة الفيوم . ٣ – منطقة قنال السويس .

٤ – الصحراء الغربية ٥ – الصحراء الشرقية .

٦ – شبه جزيرة سيناء ٧ – جزر البحر الأحمر .

ومجموع مساحتها كلها حوالى مليون كيلو متر مربع ، منها ٣٧,٠٠٠ كيلو متر مربع تقريباً ، هى الوادى الآهل بالسكان ، أما الباقى فهو صحارى ، وبعبارة أخرى لا تزيد مساحة الجزء العامر من الأراضى المصرية عن ٤٪ من مساحة مصر ، أما الباقى فهو صحارى تكاد تكون خالية من الزراعة .

ويسكن ٩٩٪ من المصريين الذين يبلغ عددهم زهاء خمسة وعشرين مليوناً فى هذا الجزء البسيط من الجمهورية أى بمعدل أكثر من ٧٠٠ شخص للكيلو متر المربع الواحد بينما لا يسكن فى الجزء الباقى وهو ٩٦٪ من مجموعة المساحة أكثر من ١٣٠,٠٠٠ أى أن متوسط السكان فى الصحراء هو أكثر من سبعة كيلو مترات مربعة للشخص الواحد .

ولهذا يسهل علينا أن نفهم قيمة نهر النيل لمصر ، إذ لولا وجوده لكانت تلك الأراضى المزروعة التى يعيش فيها أكثر السكان ، صحراء مثل تلك التى على يمينها وعلى يسارها ، والتى تمتد من المحيط الأطلسى حتى بلاد العرب ؛ لأن هذه المنطقة أصبحت الآن (أى خلال الستة آلاف سنة الأخيرة) قليلة الأمطار ولا يزيد متوسط كمية الأمطار فى بعض جهات شاطىء البحر الأبيض عن ٢٠ سنتيمتراً فى السنة ، وفى القاهرة ٣ سم وفى أسيوط نصف سنتيمتر ، أى أنه لا يمكن أن تكفى لزراعة أى محصول بعيداً عن الشاطىء ، إذا كان الاعتماد على المطر وحده .

وطول الإقليم المصرى من الشمال إلى الجنوب ١٠٧٣ كيلو مترا ، وعرضه ١٢٢٦ كيلو مترا ، أى أن مساحة مصر تزيد على مساحة أى دولة فى أوربا ما عدا الاتحاد السوفيتى ، ولكن الصحراء تكون الجزء الأكبر منها كما سبق القول .

ويشق النيل طريقه فى واديه ، فيسير بين هضبتين يختلف اتساع الوادى بينهما من آن لآخر (طول وادى النيل بأكمله ٦٦٧١ كيلو مترا منها ١٥٣٠ فى الأراضى المصرية) ، وهذا الوادى ضيق جداً بين الشلال الثانى وأسوان وعلى جانبيه بعض الصخور الجرانيتية ، ولكنه يبدأ فى الاتساع بعد ذلك . ويضيق أحياناً أخرى ، هو فى المتوسط ١٠ كيلو مترات منها ٣/٤ كيلو متر للنيل نفسه ، أما الدلتا فهى مكونة من

طمى النيل ، وتخلو من الجبال ومسطحها نحو ٢٢,٠٠٠ كيلو متر مربع ولا تزيد مساحة المزروع منها عن النصف إلا قليلا .

العصور الجيولوجية :

ومرت على مصر عصور جيولوجية متعددة قبل أن تصبح آهلة بسكانها . ففى عصر الإيوسين (Eocene) كانت تصل مياه البحر الأبيض المتوسط إلى جنوبى إسنا، ثم حدث ارتفاع فى الأراضى فى عصر الأوليجوسين (Oligocene) أدى الى ظهور أكثر القطر المصرى .

وفى عصر الميوسين (Miocene) كان النيل قد إتخذ مجراه الحالى تقريبا واتصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ؛ ولكن لم يأت آخر هذا العصر حتى انفصل البحران مرة أخرى عن بعضهما .

كان اتصال النيل بالبحر الأبيض المتوسط عند موقع القاهرة تقريبا ، وكانت له عدة روافد فى الصحراء الشرقية لم يبق منها غير أثر مجاريها فى الوديان هناك .

وفى عصر البليوسين (Pliocene) حدثت هزةأرضية كبرى أعادت اتصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض . ولكن هذا الاتصال كان بوساطة جزء ضيق وهو الذى بقى منه فى العصور التاريخية خليج السويس . وبعض البحيرات .

وأخذ النيل يلقى برواسبه فى الفجوة التى كان يصب فيها ، وكون لنفسه فى تلك الأراضى الجديدة نحو عشرة فروع .

لم يأت العصر الباليوليتى على مصر (Paleolithic) حتى كانت روافد النيل فى الصحراء الشرقية قد جفت ، وانفصم خليج السويس عن البحر الأبيض وانكمش خليج العقبة إلى ما يقرب من شكله الحالى ، مع أن نهايته كانت عند منخفض البحر الميت فى فلسطين ، وظهرت أيضاً محافظة الفيوم إذ سار فرع من النيل إلى ذلك المنخفض الشبيه بالواحة ، وعادت عوامل الطبيعة فجففت فرعا للنيل كان يسير فى الصحراء الغربية منذ عصر الميوسين وبقى حتى نهاية عصر البليوسين .

أما النيل نفسه ، فكان فى البداية سريع المجرى ويملأ الوادى أثناء الفيضان ولكنه أخذ يعمق مجراه مع مرور الزمن ، كما أخذت تقل كمية الأمطار ، فأخذ عرضه يقل تبعا لذلك وكون مدرجات على مدى العصور . وعاش الإنسان القديم فوق تلك المدرجات ، وترك بعض أدواته الظرانية (الصوانية) فوق الهضاب ثم أخذ ينزل تدريجياً ليكون على مقربة من النهر كلما تقدم به الزمن وعمق النهر مجراه .

عصر ما قبل التاريخ :

كان السكان الذين يعيشون على مقربة من نهر النيل يعتمدون على الصيد ، وكذلك فعل الذين كانوا يعيشون فى الصحراء معتمدين على نزول الأمطار التى كانت تملأ بعض المنخفضات فتحيلها إلى بحيرات ، تنبت حولها الأشجار والأحراش ، وتغذيها مياه الأمطار التى تنزل فيها ومجارى الوديان المختلفة التى تصب فى تلك المنخفضات .

وكثيراً ما يعثر الباحثون على أدوات ظرانية وأخشاب متحجرة داخل الصحراء، ولكن لم يصل إلى أيدى العلماء حتى الآن أى عظام أو بقايا أخرى من ذلك الإنسان الذى عاش فى العصر الحجرى فى تلك المناطق أو على جانبى النيل . ولهذا نعتمد فقط على تلك الأدوات الحجرية عند الكتابة عن هؤلاء السكان ومقارنة حضارتهم بحضارة غيرهم من الشعوب .

كان المصرى فى ذلك الوقت جامعاً للقوت يحصل على حاجته مما يجده من ثمارالأشجار ومما يستطيع أن يصطاده من أسماك النهر والبحيرات ، أو من الطيور وصغار الحيوانات . ومثل هذه الحياة تستلزم التنقل الدائم ، ولا تحتاج إلى ضرورة إقامة العائلات على مقربة من بعضها ، كما أنها لا تحتاج إلى أثاث ثقيل يحمله الإنسان معه .

وجاء اليوم الذى عرف فيه الإنسان أنه يستطيع أن يستنبت بعض حبوب النباتات البرية ويحصل منها على كميات كبيرة بعد زرعها ، وبعبارة أخرى أخذ المصرى يتحول تدريجياً من جامع للقوت إلى منتج له ، فأجبرته الزراعة على الإقامة فى مكان معين ليرعى حقله وليحصل على ثماره ، كما بدأ الإنسان يستأنس الحيوانات أيضاً ، ويبنى له مستقرا يأوى إليه ويضع فيه محصوله ، كما بدأ أيضا يصنع من بعض النباتات ومن الطين أوان لحفظ حاجياته . وعندما وصل الإنسان إلى هذه المرحلة ، أى بعد ترك اعتماده على حياة الصيد وجمع القوت اعتمادا كاملا ، أخذ يودع حياة العصر الحجرى القديم ، وأخذ يبدأ العصر الحجرى المتوسط الذى حسن فيه الإنسان بعض أدواته وأخذ يرتقى قليلا قليلا فى مدارج المدنية ، وبدأ يتحلى ببعض أدوات الزينة ، وما جاء العصر النيوليتى أو العصر الحجرى الحديث حتى كان هذا الإنسان يعيش فى قرى صغيرة ، وعرف الملابس وبدأ يدفن موتاه فى قبور ، وبدأ يصنع بعض التماثيل وأدوات الزينة .

ومن بين أقدم الحضارات التى عثر عليها العلماء فى وادى النيل بوجه عام

حضارة الخرطوم التي يرجع تاريخها إلى ما بين عامى ٥٠٠٠ ، ٤٧٠٠ ق.م. وقد ظهرت بقاياها أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهي حضارة لا شك في صلتها بحضارة شمال الوادي ولكنها كانت متأثرة بطابع محلي أملته صلة السكان بغيرهم ممن كانوا يعيشون إلى الجنوب منهم . وكان سكان الخرطوم القدماء على درجة من التقدم جعلتهم يصنعون أدوات مختلفة من الحجر ومن العظم ، ويتحلون بالخرز والعقود المصنوعة من بيض النعام . وعرفوا صناعة الفخار وزخرفته بوساطة أجزاء من السلسلة الفقرية لبعض الأسماك تشبه المشط يديرونه حول الإناء قبل أن يجف ، كما كانوا يزخرفون الأواني بوساطة الحبال أو أصابع اليد ، وكان هؤلاء السكان يعيشون على مرتفع غير بعيد من النهر يقضون فيه جزءاً من السنة فقط .

وليس لدينا دليل قاطع على أنهم مارسوا الزراعة رغم معرفتهم للفخار الذي يلازم الناس عندما يتحولون إلى الزراعة ويصبحون منتجين للقوت .

وهناك وجوه شبه عدة بين فخار الخرطوم وفخار البداري وما عثر عليه المنقبون في النوبة وفي غربي السودان مما يدل على انتشار ثقافة واحدة في جزء كبير من هذا الجزء من العالم في ذلك العهد .(١)

وتسمى الفترة بين بداية العصر النيوليتي (أي العصر الحجري الحديث) وبين ظهور الأسرات في مصر ، وتقرب من ألفي سنة ، العصر الحجري النحاسي (Chal-colithic Period) أحياناً ، ويعنينا منها في هذه المرحلة ما كان في مصر قبل عام ٤٠٠٠ ق.م ونستطيع أن نقول إنه كان لكل من حضارتي الدلتا والصعيد مميزات خاصة ، ففي الدلتا تأثرت الحضارة بما كان في شرقي مصر وغربيها لاتصالها بأهل فلسطين وسورية وجزر البحر الأبيض المتوسط من ناحية وبشمالي إفريقيا من ناحية أخرى . أما في الصعيد فقد اتصلت عن طريق الشرق أي عن طريق البحر الأحمر ببعض الثقافات الأخرى الحامية والسامية كما اتصلت أيضا بالشعوب التي كانت إلى جنوبي مصر .

وأقدم حضارات الشمال (أي الدلتا) هي حضارة الفيوم التي كانت لقوم ربما نزحوا من الغرب واستقروا على حافة البحيرة ، ثم تليها حضارة مرمدة وكلاهما كان قبل عام ٤٠٠٠ ق.م. ثم تلتها بعد ذلك حضارة جرزة ثم المعادي ، أما الصعيد فإن

أقدم الحضارات هى حضارة تاسا ثم البدارى وبعدها حضارة العمرة (١) . ويكفينا أن نتكلم على مميزات حضارتى مرمدة فى غربى الدلتا والبدارى فى محافظة أسيوط لأنهما تمثلان بوجه عام مصر وجنوبيها .

حضارة مرمدة :

عثر الأستاذ هرمان يونكر على هذه الحضارة فى عام ١٩٢٨ ، ولم ينشر حتى الآن مؤلفه الكامل عنها ، وكل ما نعرفه مستمد من تقاريره السنوية التى نشرها بين أعوام ١٩٢٩ ، ١٩٤٠ وهذه المنطقة هى بقايا قرية نيوليتية على حافة الدلتا الغربية ، لا يزيد حجمها على ستة أفدنة (٦٠٠ × ٤٠٠ متر) ، شيد أهلها أكواخهم المبنية بالطين على جانبى طريق رئيسى مستقيم .

وقد ثبت أن سكان مرمدة كانوا يعرفون الزراعة وكانوا متعاونين فيما بينهم ويخزنون غلاتهم فى صوامع مشتركة لهم جميعاً ، وكان لديهم قطعان من الماشية والخنازير وقليل من الماعز والخراف .

واستعملوا فى الزراعة شرشرة مستقيمة من الخشب ثبتوا فى حافتها قطعاً من الظران ليقطعوا بها أعواد القمح التى كانوا يخزنونها فى صوامعهم التى صنعوها من الخوص ، وكانوا يضعونها فى حفر عميقة تحت مستوى سطح الأرض . وعرف أهل مرمدة فأس القتال كما عرفوا استعمال السهام وكان لديهم دبابيس للحرب وسكاكين من الظران .

ولا يخالجنا شك فى أن سكان مرمدة كانوا يلبسون الكتان بعد غزله ، وأن نساءهم كن يتحلين بعقود من المحار أو أسنان الخنزير البرى ، وبخواتم من العظم وحلقان من العاج . وكان لكل امرأة لوح من حجر الإردواز تصحن عليه التوتية الخضراء لتكحيل عينيها لأجل التجمل ولوقايتها من أشعة الشمس ، وربما أيضاً ضد بعض أمراض العيون . وفخارهم أسود خشن ، وشكله على هيئة قرب الماء ، ومنه بعض أنواع ذات قواعد ، وأوان صغيرة على شكل فناجين ذات أرجل ، وأحياناً يتصل اثنان منها ببعضهما . وكان لديهم أوان طويلة العنق تشبه القلة الحديثة ، كما صنعوا أيضاً صوان صغيرة من الفخار . ولم يزخرف سكان مرمدة أوانيهم ولم يصنعوا لها أياد على جانبيها ولكنهم كانوا يعملون ثقوباً فى جوانبها لتعليقها .

ومن أهم ما عثر عليه يونكر فى منازل تلك القرية وجود أعمدة فى بعض المنازل لحمل السقف . أقاموها فى وسط الحجرة . كما عثر فى ركن إحدى الحجرات على عظمة كبيرة من عظام فرس البحر كانت مثبتة لاستعمالها سلماً للصعود إلى السطح . وكانوا يدفنون موتاهم تحت أرضية أكواخهم كما فعل كثيرون من سكان الشرق القديم دون أن يضعوا معهم أوان أو أسلحة .

وقد ثبت من فحص بقايا الهياكل العظمية لهؤلاء السكان أنهم كانوا فرعاً من جنس سكان البحر الأبيض المتوسط ذوى رؤوس تميل الى الاستطالة وجباههم عريضة ، وهم فرع من حضارة انتشرت على شاطىء إفريقيا الشمالى ووصلت إلى أوروبا حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م.

ولم تتصل حضارة مرمدة بحضارة البدارى إتصالاً مباشراً أو كان لها أثر مهم عليها ، بل إستمرت فى الدلتا .

حضارة البداري :

لم يكن سكان الصعيد ، فى ذلك الوقت ، قد إستقروا فى مدن أو قرى كبيرة ثابتة ، بل كانوا يسكنون فى محلات أو نجوع متنقلة ، ولكنهم إختاروا أماكن يدفنون فيها موتاهم وهى الجبانات . وإذا درسنا حضارة البدارى لرأينا فيها شبها كبيراً بحضارة سكان الصحراء الغربية القدماء وبخاصة أهل العوينات ولرأينا أنها لم تخل من التأثر بالحاميين . ولسنا نعرف حتى الآن أى مكان شمالى محافظة أسيوط تأثر بهذه الحضارة ، بل كان إنتشارها إلى الجنوب ، ونراها فى بلاد النوبة أيضاً بل وأبعد من ذلك .

كان الجو فى ذلك العهد أكثر أمطاراً ودفئاً عما هو عليه الآن ، وكان السكان يعيشون فوق المرتفعات التى تشرف على المساحات الواسعة من الأحراش والمستنقعات الملأى بالنباتات المختلفة وبخاصة نبات البردى . ولم يبق إلا القليل من القرية أو القرى التى عاشوا فيها ، وأكثر ما وصلنا من معلومات عن أهلها إنما جاء من حفائر الجبانات الكثيرة . وكان البداريون أقرب إلى القصر منهم إلى الطول إذ لم يزيدوا فى المتوسط عن ١٦٠ سنتيمتراً . وكانوا نحاف الجسم ، وتقطايع وجوههم دقيقة ، وشعرهم متموج أسود ، وفى بعض الحالات القليلة كان لون شعورهم كستنائياً. وكان الرجال يرسلون شعورهم على أكتافهم ، بينما كان شعر النساء أقصر من شعر الرجال ولم يزد طول شعر امرأة فيهم عن ٢٠ سنتيمترا يضفرنه فى غدائر ، وكان رجال البدارى يعنون بمظهرهم الخارجى ، فيحلقون لحاهم ، ويضعون طاقية فوق رؤوسهم . وعرف

البداريون الملابس الكتانية ، كانوا يلبسونها رجالاً ونساء وأطفالا ، وعند اشتداد البرد كانوا يلبسون الجلود وصوفها إلى الداخل ، كما عرفوا أيضاً دبغ الجلود .

وكانوا يحلون أعناقهم وأذرعهم بالعقود والأساور المصنوعة غالباً من حبات مزججة ، وكانوا يزينون شعورهم بوضع الريش فيها ، وأحياناً بوضع أمشاط طويلة من العاج زينت رؤوسها بأشكال الحيوانات ، كما كان يضع بعضهم حول شعورهم عصابات زاهية اللون محلاة بأصداف البحر الأحمر .

ومن أهم ما عثر عليه فى مقابرهم بعض حبات من النحاس المطروق ، كما إستخدموا فى حليهم حبات من الفيروز والعقيق والكوارتز ، وحبات مصنوعة من قشر بيض النعام . وكان بعض النساء يحلين أنوفهم بوضع زر صغير ، يثبتون نتوءاً صغيراً فى أحد طرفيه فى ثقب داخل الأنف ، وعرفت النساء إستعمال الكحل للعيون واللون الأحمر للشفاه .

أما مساكنهم فكانت بسيطة بدائية ، وضعوا فيها الأثاث البسيط ، منها أسرة خشبية قليلة الارتفاع ، كما كانوا يستعملون وسادات من الجلد أو الكتان المحشو بالتبن.

ومن بين أدواتهم عثر على عصى للرماية وشصوص لصيد السمك ، والحراب والسهام ، كما عثر أيضاً على نماذج للقوارب .

ووضعوا موتاهم فى قبورهم أحياناً فوق الأسرة ، أو ملفوفة فى حصير ، ولم يقتصر الدفن على البشر بل أن بعضهم دفن معه غزلانا وقططا ، وكانوا يضعون رؤوس الموتى فوق وسائد ، ويحرصون على أن تكون وجوهها نحو مطلع الشمس مهما كان مكان القبر أو اتجاهه فى الجبانة .

ويمتاز فخار البدارى بإتقانه وجمال زخارفه وصلابة مادته ، ورقة جدران أوانيه ، ولا شك أن البداريين آمنوا بالبعث ، وكانوا يضعون معهم فى قبورهم بعض تماثيل قليلة للحيوانات وبخاصة فرس النهر ، وهناك تماثيل أخرى للنساء وللطيور ، ولكن ذلك لا يعنى أنهم كانوا حتما يعبدون تلك الحيوانات .

ولو أمعنا النظر فى هذه الحضارات لوجدنا أنها تشبه فى كثير من مظاهرها حياة بعض سكان شرقى إفريقيا اليوم وبخاصة قبائل البشارية والهادندوة وبعض قبائل الصومال وكلهم من الجنس الحامى الأصل .

ولا تقتصر المقارنة على إفريقيا فقط بل إنها تمتد إلى جنوبى الجزيرة العربية ، ومتى أمكننا دراسة تلك الشعوب المختلفة دراسة كاملة أمكننا أن نحدد ما يربطها

بالمصريين القدماء من صلات ، ولكن هذه الدراسات ما زالت فى بدايتها حتى الآن (١) .

نظرة عامة في عصر ما قبل الأسرات

والآن وقد عرفنا شيئا عن حضارتى مرمدة والبدارى ، كلاهما يرجع تاريخه إلى حوالى عام ٤٤٠٠ ق.م. يمكننا أن نلخص حياة المصريين القدماء فى ذلك العهد بأنهم كانوا قد عرفوا الزراعة واستخدام معدن النحاس ، ولو فى نطاق ضيق ، كما بدأوا حياة متحضرة بعض الشيء . وتقدمت الأيام ، وتقدم معها إرتقاء السكان ، واضطرتهم حياة الاستقرار إلى التعاون فيما بينهم ، فقد كان لزاماً عليهم أن يشقوا القنوات ليوصلوا مياه النيل إلى الأماكن البعيدة عن النهر ، كما اضطروا أيضاً إلى تجفيف بعض المستنقعات وإخلائها من الأشجار ، كما اضطروا للتعاون على حماية أنفسهم وقراهم ومحاصيلهم من أخطار فيضان النيل . كانت هذه الأعمال جميعاً تستلزم تعاون عدد كبير من الناس ، وتستلزم أيضاً وجود زعيم يحترم الجميع أوامره فينفذوها ويخاف الناس عقابه إذا لزم الأمر . وفرضت طبيعة أرض مصر أن يتجمع عدد كبير من السكان فى قرى قريبة من بعضها فى الأماكن التى يتسع فيها الوادى ، فلم يمض وقت طويل حتى تكونت وحدات إقليمية كان لكل منها زعيم له السلطة على من حوله .

وحدث مثل ذلك فى الدلتا أيضاً ، وكان العامل الأساسى فى تحديد أقاليمها المختلفة هو مجارى الأنهار . أو بعض المظاهر الجغرافية الأخرى ، وانتهى الأمر بتقسيم كل من الدلتا والصعيد إلى أقاليم محددة لكل منها اسم يطلق عليه ، ولكن حدود هذا التقسيم لم تكن ثابتة على الدوام . فمن حين لآخر كان يظهر زعيم قوى فى أحد الأقاليم يضم إليه شيئاً مما جاوره ، وأخيراً تجمعت أقاليم الدلتا تحت سلطة حاكم واحد وحدث الشيء نفسه فى أقاليم الصعيد ، وأصبح هناك ملكان أحدهما للشمال وكان يتخذ النحلة شعاراً له ويلبس تاجاً أحمر اللون ، والآخر للجنوب ويتخذ نباتا يسمى ، سوت ، شعاراً له ويلبس تاجاً أبيض اللون .

وفى وقت من الأوقات ، وربما كان ذلك حوالى عام ٣٤٠٠ ق.م. ، تغلبت الدلتا على الصعيد وتوحدت مصر تحت حكم الشمال ، ولكن لم يستمر هذا الاتحاد الأول ، وعاد كل من الشمال والجنوب إلى استقلاله . وحوالى عام ٣٢٠٠ ق.م. تقريبا أغار ملك الصعيد فأخضع الدلتا ووحد البلاد وأسس الأسرة الأولى المصرية . ولكن

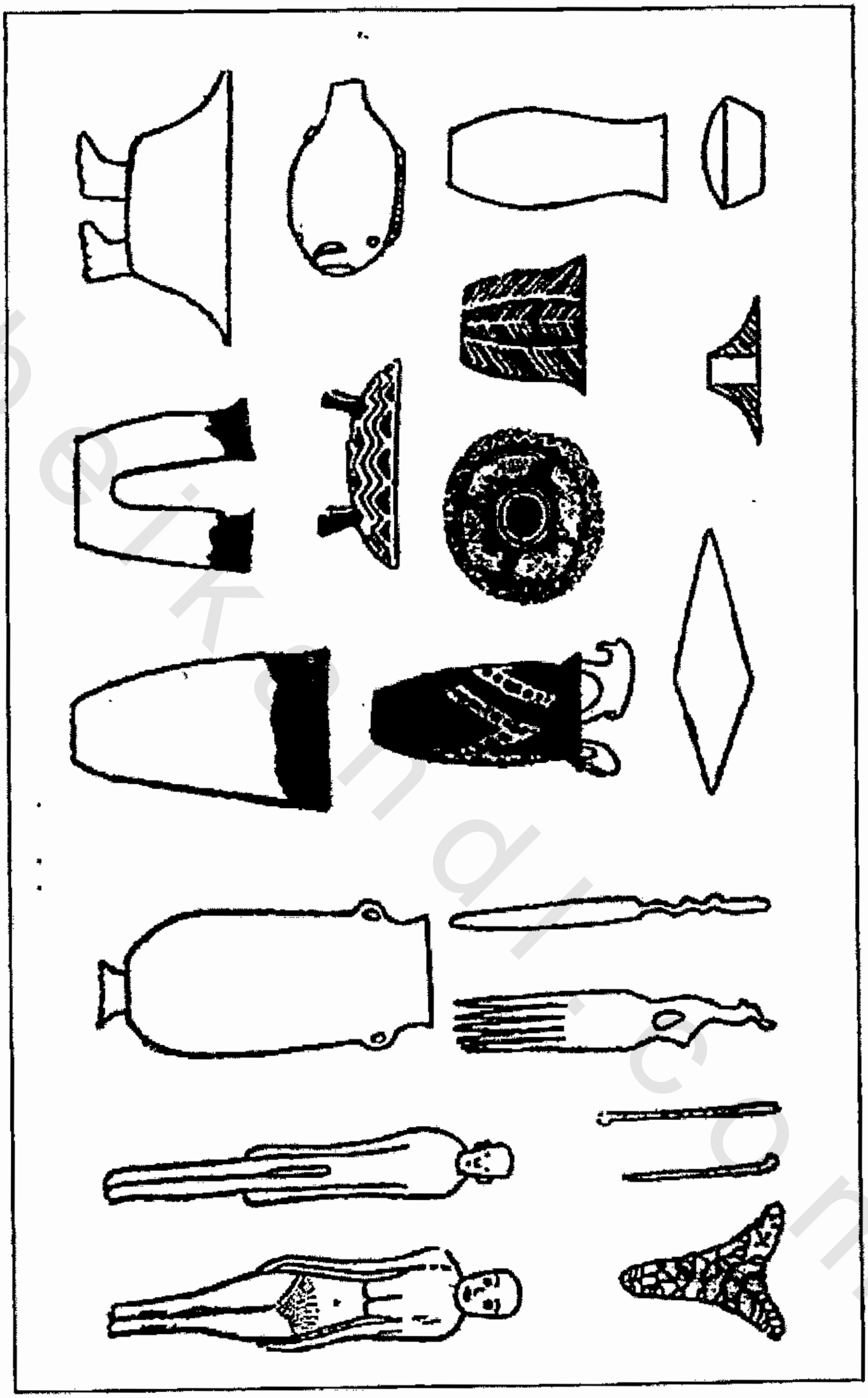

أواني وأدوات مختلفة من عصر ماقبل الأسرات المبكر

obeikandi.com

هناك رأى آخر وهو أن الاتحاد الأول قد استمر إلى قبيل ظهور الأسرة الأولى وأن أهل الصعيد ثاروا وأرادوا الإستقلال بإقليمهم فحاربوا وانتصروا وقضوا على سلطان الشماليين وأصبحوا هم سادة البلاد كلها وكونوا الاتحاد الثانى .

كانت القرون القليلة السابقة على الأسرة الأولى ، هى الفترة التى وضعت فيها مصر أسس حضارتها التى ظلت بعد ذلك آلاف السنين ، ووضعت فيها أصول دياناتها، ووضعت أسس نظمها المحلية ، ووضعت تقاليد الملكية ، وتفاعلت فيها الثقافات المختلفة . ولم تكن عزلة مصر الجغرافية مانعة لها من الاتصال بغيرها من أمم الشرق القديم وبخاصة بلاد الرافدين ، لأن تلك الفترة من تاريخ العالم القديم كانت فترة إتصالات تجارية واسعة ، ولم تر مصر غضاضة فى أن تنقل من حضارة بلاد الرافدين بعض مظاهرها ، وموضوعات الفن السومرى وبخاصة فى رسم الحيوانات.

ولا شك أن تلك المؤثرات وصلت عن طريق التجارة فى البحر الأحمر وجاءت إلى الصعيد عن طريق وادى الحمامات ، ولهذا نجد أثرها واضحاً هناك وقد أمدتنا جبانات الصعيد بأكثر معلوماتنا عن ذلك العصر مما احتفظت به آلاف القبور التى كشفت عنها الحفائر فى محافظتى قنا وجرجا ؛ لأن تلك القبور كانت فى جبانات أحتاط القدماء فى اختيار أمكنتها وجعلوها على حافة الصحراء فوق أعلى ما يمكن أن تصل إليه مياه الفيضان ، وكانوا يختارون أمكنتها بعيدة عن الأراضى المزروعة فلا تصل إليها الرطوبة . وساعد جفاف الجو وندرة نزول الأمطار على بقائها سليمة حتى الآن ، وكانت الرمال الجافة خير حام لها خلال تلك الآلاف من السنين .

أما آثار ذلك العصر فى مدن الدلتا ، وهى دون شك لا تقل فى أهميتها عن آثار الصعيد ، فقد غطاها الطمى منذ زمن بعيد وأصبحت الآن تحت مستوى الزراعة اللهم إلا ما كان منها على حافة الدلتا أو فى أماكن مرتفعة فى وسطها ، ولهذا أثرت فيها الرطوبة ولم يعد لنا أمل كبير فى العثور على شىء فى حالة جيدة تحت الأراضى المزروعة اللهم إلا إذا كان من الفخار أو من بعض أنواع الحجر التى لا تتأثر كثيراً بالرطوبة ، أو من معدن الذهب .

ولا شك أن فقد آثار الدلتا التى كانت متصلة بالبلاد التى على الناحيتين الشرقية والغربية من مصر ، ومتصلة كذلك بالبحر الأبيض قد تسبب فى ضياع كثير مما يهمنا الوقوف عليه سواء عن صلة مصر بغيرها من الشعوب أو عن أصل الحضارة المصرية نفسها .

ولهذا لم يبق لدينا إلا آثار الصعيد فقط لنتحدث عنها كآثار مصر بصفة عامة فى ذلك العصر ، ونعمم ما وقفنا عليه من مظاهر الحضارة فى الصعيد كأنه يمثل حضارة مصر كلها وهو أمر لا شك فى أنه عرضة للنقد . وقد سبق أن رأينا وجوه الاختلاف الجوهرية بين حضارتى مرمدة والبدارى ، ولا جدال فى أنه كانت هناك اختلافات جوهرية بين مظاهر حضارتى الشمال والجنوب فيما تلا ذلك من عصور قبل أن تزداد الصلة بينهما ، وتعم البلاد كلها حضارة ذات طابع عام بعد إتحاد الشمال والجنوب ، ذلك الاتحاد السياسى والاجتماعى تحت حكم ملك واحد فى عصر الأسرات .

وعثر الباحثون على مئات الآلاف من الأوانى والآثار الصغيرة المختلفة وأكثرها فى قبور الجبانات وقليل منها فى منازل بعض القرى مثل قرية العمرى التى كانت على مقربة من حلوان والمعادى والهمامية والمحاسنة ، وهى كلها منازل بسيطة أقرب إلى الأكواخ ، بعضها مستدير أو بيضاوى وجدرانها من أعواد بعض النباتات بعد ضمها لبعضها وتثبيتها ثم لطسها بالطين ، أما السقف فكان أيضاً من أعواد النباتات الجافة ومغطى بالقش .

ولدينا فى المعادى خير الأمثلة على منازل ذلك العصر ، فقد عثرت بعثة جامعة القاهرة التى بدأت حفائرها فى تلك المنطقة عام ١٩٢٨ ، وما زالت تعمل حتى الآن ، على آثار من أهم ما وصل إلى أيدينا حتى الآن ، وألقت ضوءاً كبيراً على حضارة مصر فى الوقت الذى أخذت تودع فيه عصر ما قبل الأسرات القديم والمتوسط وتدخل فيما نسميه عصر قبيل الأسرات .

عثر الحفارون هناك على قرية كبيرة فيها المنازل التى سكنها هؤلاء القوم ، ويمكننا أن نقول إنه يمكن تمييز نوعين من المنازل ، أقدمها كان مستديراً أو بيضاوياً ، وكانت له قوائم مغروسة فى الأرض ، يملأون المسافات التى بينها بأغصان مضفورة ويلطسونها بعد ذلك بالطين . وفى داخل تلك المنازل البسيطة ، التى كانت على الأرجح غير مسقوفة ، كانوا يضعون المصطلى الذى يطهون فيه طعامهم ويمدهم بالدفء إذا ما اشتد عليهم البرد .

أما النوع الآخر من المنازل ، وهو أحدث عهداً من النوع السابق ، فكان مستطيلاً ، وكان مشيداً بطريقة القوائم المغروسة كالنوع الأقدم ، أما بابه فكان يفتح فى منتصف الواجهة التى كانت فى إحدى الجهات الطولية ، وقد زادوا على هذا النوع

من المنازل جداراً أمام المدخل يحمي من في داخل المنزل من الريح ومن نظرات المارين في الطريق .

وليست بقايا منازل القرى ، وهي لا تزيد في الغالب عن الأساسات التي لا تعطينا أكثر من رسمها التخطيطي العام ، هي كل مصدرنا عن معرفة منازل ذلك العهد ، فلدينا مصدران آخران وهما بعض نماذج المنازل المصنوعة من الطين أو الفخار ورسوم بعضها على أيادي السكاكين كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ولا يستطيع إنسان أن يضع تواريخا ثابتة معروفة لما نعثر عليه من آثار عصر ما قبل الأسرات ، ولكنا نعرف على وجه تقريبي أن بعضها أقدم من البعض الآخر ، ولكن لا يمكن أن نقول شيئا محدداً أو على وجه الدقة عن الفرق في التاريخ بين الاثنين .

وأكثر العلماء نشاطا في حفائر ذلك العصر كان فلندرز بترى الذي حفر جبانات متعددة تعد بالآلاف في « نقادة » وفي « هو » (وكلاهما في محافظة قنا) وغيرهما ووضع لها ترتيبا لم يبدؤه من ١ بل من رقم ٣٠ لعله تظهر حضارات أقدم مما عثر عليه . وانتهى عند ٨٠ ، وجعل بترى ظهور الملك « منا » عند رقم ٧٧ ولكن الأبحاث الحديثة تميل الآن إلى جعل بداية الأسرة الأولى عند رقم ٦٠ فقط .

فلما عثر برنتون على حضارة البداري وضعها بين ٢٠ ، ٢٩ إذ يبدأ عصر ما قبل الأسرات بحضارة العمرة برقم ٣٠ .

وعلى أي حال فهناك مآخذ كثيرة على هذا الترتيب ، ولكنه مهما قيل فيه فإنه خير من لا شيء ، ولم يقم أحد بعد بترى بوضع نظام آخر يحل مكانه إذا قررنا إهماله وعدم الأخذ به .

وأحدث الأبحاث تفضل التواريخ الآتية :

حضارة حلوان (العمرى)	حوالى	٥٠٠٠ ق.م
حضارة تاسا	حوالى	٤٨٠٠ ق.م
حضارة البدارى	حوالى	٤٥٠٠ ق.م
حضارة مرمدة	حوالى	٤٤٠٠ ق.م
حضارة العمرة	بين ٤٤٠٠ ، ٣٩٥٠ ق.م	

حضارة جرزة وهي معاصرة تقريبا للمعادى بين ٣٩٥٠ ، ٣٤٠٠ ق.م

ويكفينا هذا القدر من الحديث على الحضارات القديمة فى عصر ما قبل الأسرات ولننتقل الآن الى قبيل عصر الأسرات أو عصر ما قبل الأسرات المتأخر الذى هيأ مصر لبدء عصرها التاريخى.

قبيل الأسرات

حوالى عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد كانت الحضارة المصرية قد وصلت إلى درجة متقدمة إلى حد ما ، وقد أشرنا إلى هذا التقدم وأشرنا إلى الأوانى الفخارية المزخرفة ذات الأشكال المتعددة التى ظهرت قبل ذلك الوقت ، كما أشرنا أيضاً إلى وجود بعض تماثيل إنسانية وبخاصة للنساء وبعض أدوات الزينة وأهمها أمشاط الشعر المصنوعة من العاج والتى صنعوا الجزء الأعلى منها على هيئة حيوانات مختلفة ، كما أشرنا أيضاً إلى الألواح المصنوعة من الإردواز على هيئة الحيوانات أيضاً ، والتى كانت تستخدم لصحن الكحل . والمفهوم أن الدلتا فى ذلك الوقت البعيد كانت أكثر تقدماً من الصعيد ، وأن مصر كانت قد وصلت إلى تكوين مجموعتين من الأقاليم إحداهما فى الشمال وأصبح لها ملك ، وأخرى فى الجنوب وكانت أيضا تحت حكم ملك آخر .

وكان لملك الدلتا تاج خاص به ذو لون أحمر وربما كان مضفورا من بعض النباتات ، ولملك الصعيد تاج مختلف قمعى الشكل تقريبا وربما كان من الجلد أو اللباد . وكان مركز عبادة الإله حورس (الصقر) فى أول الأمر فى غربى الدلتا ، وكان هناك إله آخر فى شرقى الدلتا وهو الإله « عنچتى » ولكن لم يلبث حورس حتى تغلب عليه وأصبح إلها للدلتا كلها عند توحيدها . أما فى الصعيد فكان الإله « ست » هو الإله الذى يتغلب نفوذه على ما عداه من الآلهة ، وكان مركز عبادته فى مدينة « نوبت » فى محافظة قنا عند بلدة طوخ الحالية شمالى نقادة .

وفى وقت من الأوقات تغلبت الدلتا على الصعيد وكونت مملكة واحدة وأصبح للإله « حورس » مركز أهم من مركز « ست » وأصبحت مدينة « هيراقونبوليس »

ومكانها الآن الكوم الأحمر (وكانت تسمى نخن) شمالى إدفو مركزا رئيسيا لعبادته فى العصر الذى نسميه أواخر عصر ما قبل الأسرات أو قبيل عصر الأسرات .

ولم يعد أمر الاتحاد الأول فى مصر فرضا من الفروض كما كان من قبل ، بل أصبح الآن حقيقة مقررة بعد دراسة حجرباليرمو وبخاصة إحدى قطعه الموجودة الآن في متحف القاهرة وغيره من آثار ذلك العهد . وليس لدينا أى معلومات مؤكدة عن مكان عاصمة تلك المملكة الموحدة وإن كانت هليوبوليس (على مقربة من القاهرة الحالية) هى المدينة التى يكاد يجمع الباحثون على أنها كانت عاصمة تلك المملكة .

ولكن قبل ذلك الاتحاد كانت مدينة « بوتو » فى غرب الدلتا (ومكانها الآن تل الفراعين) ، هى عاصمة مملكة الدلتا وكانت الهتها تسمى « واچيت » ، ويرمز لها بثعبان الكوبرا ، وكان ملكها يلبس التاج الأحمر وهو الذى كان فى أصله رمزا للإلهة « نيت » إلهة مدينة سا (سايس – صا الحجر) ، واتخذ له شعارا نبات البردى وكان ملكه يشمل الدلتا وجزءا قليلا من مدخل الصعيد ، أما ملك الصعيد فقد كانت عاصمته فى الكاب وهى أمام الكوم الأحمر (نخن – هيراقونبوليس) التى كانت قبل ذلك مقر عبادة الإلهة « نخبت » ويرمز له بالرخمة ويلبس ملكها التاج الأبيض واتخذ شعارا له نباتا آخر يسمى « سوت » [١] ووصلت حدود هذه المملكة جنوبا الى الشلال.

وأصبح الإله حورس هو الإله الرئيسى فى كل من المملكتين ، بل أصبح الملك فى كل منهما هو الممثل لحورس على الأرض أثناء حياته ، وكانوا يعطون للملك اسما آخر الى جانب اسمه الأصلى عند توليه العرش وهذا الاسم الجديد يسمى الاسم الحورى وكان يكتب فى مستطيل يعلوه الإله حورس ، وكان يستخدم كلا الاسمين أو واحدا منهم ، فلما توحد الشمال والجنوب كان الملك يلبس تاجا يجمع بين التاجين وهو التاج المزدوج واحتفظ بلقب حورس كما كان يفعل الملوك من قبل [٢].

ولا شك أن حضارة الدلتا خلفت وراءها آثارا ، وبخاصة فى العاصمة وفى المدن الرئيسية ، ولكن تلك المدن أصبحت الآن تحت مستوى الأراضى المزروعة كما قلنا ، ولم تقم أى حفائر على نطاق واسع فى مدن الدلتا حتى الآن ، ولهذا لم يكد يصل إلى أيدينا شىء من آثار ذلك العصر بينما وصلت إلى أيدينا آثار كثيرة من

الصعيد وبخاصـــة حـول العاصمـــة القديمـــة فـى هيراقونبوليس وفى بعض المناطق الأخرى .

ولا تقتصر آثار تلك الفترة على الأشياء التى عرفناها من قبل مثل الفخار وأدوات الزينة بل نرى تطوراً ظاهراً ، فلم تعد الأجزاء العليا من الأمشاط العاجية على هيئة حيوانات بل أصبحت تزخرف على وجهيها برسوم مختلفة لحيوانات متعددة ترسم صفوفاً تحت بعضها البعض ، نعرف من بينها الفيل الإفريقى والبجع والزرافة والأسد والضبع والغزال والثور الافريقى والخنزير البرى ، كما نرى أيضا أياداً للسكاكين الظرانية صنعت هى الأخرى من العاج أو صفائح الذهب وزخرفوا وجهيها إما برسوم حيوانات تشير إلى حوادث معينة وبخاصة ما يتعلق بالإنتصار على الأعداء.

أما ألواح الإردواز التى تستخدم لصحن الكحل فقد تطورت هى الأخرى وأصبحت الألواح التى تصنع للملوك تزخرف برسوم حيوانات مختلفة ، بعضها فى صفوف متراصة والبعض الآخر يمثلها أثناء الصيد ، وصارت ألواح الملوك أكبر حجما وعلى صورة درع الحرب . وعثر أيضا على عدد غير قليل من دبابيس القتال وهى مزخرفة بمناظر تمثل الحروب التى انتصر فيها أصحابها على أعدائهم ، ويظهر فيها الملك على هيئة ثور يقضى على أعدائه أو كأسد ينهش أجسادهم . وكثيرا ما نرى الأسرى مكبلين بالأغلال ، أو نرى الحصون التى إستولوا عليها وقد كتبت أسماؤهم فى داخلها . وهناك أيضاً تماثيل وأدوات منزلية ، بعضها من العاج ، ونماذج من الطين أو العاج لبعض الزوارق أو المنازل .

وإذا أمعنا النظر فى هذه الآثار المختلفة نرى أن المصريين بدأوا فى ذلك العهد البعيد يستقرون على الأوضاع الفنية الخاصة بهم فى الرسم وفى عمل التماثيل ، ونرى تقدما كبيرا فى جميع النواحى . ولا شك أيضا أن تلك النهضة جاءت على أثر التقدم فى الزراعة وعناية الناس بحفر القنوات والترع إذ قلما نجد أثرا ملكيا دون أن نرى عليه صورة الملك وهو يقوم بالتقليد المعروف وهو إمساكه بالفأس يضرب به الأرض إيذانا بالبدء فى مثل ذلك العمل ، كما نرى أيضا على بعض أيادى السكاكين رسوما تمثل قصورا أو منازل مرتفعة ذات طابقين على الأقل .

ولم تكن مصر بمعزل عن غيرها من الأمم فقد وصلتها أيضا فى تلك الفترة المهمة فى تاريخها مؤثرات من بلاد الرافدين ومن الفن السومرى كما سبق القول ، ولكنها لم تلبث حتى تركت ذلك وعادت إلى فنها الأصيل فى زخرفة الأشياء .. وربما

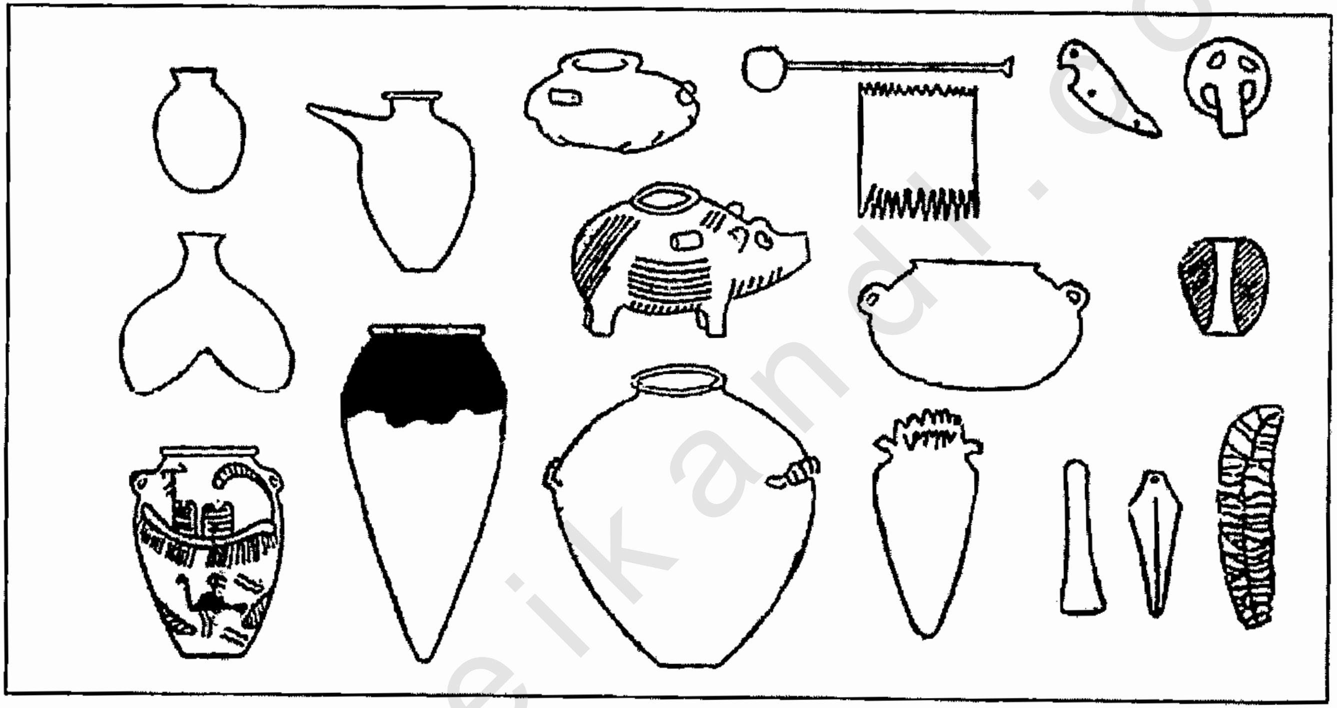

أوانى وأدوات مختلفة من عصر ما قبل الأسرات المتأخر

obeikandl.com

كان أهم تأثيرين جاءا إلى مصر من حضارة سومر هما بعض مظاهر البناء بالطوب واستخدام الأختام الاسطوانية لأنهما كانا قبل ذلك العهد مستخدمين في سومر وتطورت صناعاتهما هناك بينما ظهرا في مصر فجأة وقد استكملا تطورهما .

ووصلت مصر في ذلك العهد إلى اختراع مهم أحدث تطورا كبيرا في حضارتها وذلك هو اختراع الكتابة واستخدامها على بعض الآثار . حقيقة أن بلاد سومر كانت هي الأخرى قد وصلت إلى ذلك الإختراع آنذاك ، ولكن مصر لم تتأثر ببلاد الرافدين في هذا الأمر ، ووجدت طريقتها الخاصة دون موثر خارجي بل أن النهضة الشاملة لجميع مرافق الحياة في تلك الفترة جعلتها تصل في وقت سريع إلى استكمال هذا الاختراع وذلك بما كان كامنا فيها من قوة وفتوة (١) .

توصلت مصر إلى الكتابة في فترة قبيل عصر الأسرات وأدى استخدامها إلى معرفتنا الآن لبعض الحوادث التي جرت قبل الأسرة الأولى .

لقد أشرنا قبل الآن إلى انفصام عرى الاتحاد الأول واستقلال كل من الدلتا والصعيد عن بعضهما ولكن إتصالهما ببعضهما لم يتأثر كثيراً بذلك إذ كان النيل يسهل التجارة بين البلاد وكانت التجارة بدورها تساعد على نشر الثقافة ، ولكن لا نملك من الوثائق التي يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ما يمكننا من تحديد تلك الروابط أو تحديد أثر ذلك التبادل .

ويظهر أن الصعيد بدأ يرمي بناظريه نحو الشمال وأخذ حكامه يحاولون الاستيلاء على الدلتا ، ومن العبث أن نقول إن الاتحاد الذي تم عند ظهور الأسرة الأولى كان من تفكير أو عمل ملك واحد بل من المرجح جدا أن يكون غيره قد سبقه ممهدا لذلك ، كما تدلنا مناظر الحروب الكثيرة على آثار ذلك العهد (٢) .

ولسنا نعرف أسماء أولئك الملوك المحاربين على وجه التحديد ولكن واحدا منهم وهو الملك « العقرب » – ربما كان آخر الملوك قبل الملك (نعرمر – منا) مؤسس

الأسرة الأولى – خلف لنا بعض آثاره فى هيراقونبوليس ، عثر عليها فى عام ١٨٩٨ ونرى فيها هذا الملك (١) مرسوما على دبوس للقتال وهو يمسك الفأس يضرب بها الأرض وذلك إما قياما بأحد المراسيم الدينية الخاصة بأحد الأعياد الزراعية أو تسجيلاً لشق ترعة من الترع . ونرى فى أعلى الدبوس أعلاما تقف فوقها رموز بعض أقاليم الوجه القبلى تتدلى من بعضها طيور الزقزاق ، ويتدلى من البعض الآخر أقواس وهذا تعبير عن إنتصاره على أهل الدلتا وعلى بدو الصحراء . وعثر أيضا على أثر آخر لهذا الملك وهو إناء من الحجر الجيرى ، عثر عليه فى هيراقونبوليس كما عثر أيضا على آثار باسمه فى أبيدوس ، كما وجد اسمه مكتوبا على جزء من إناء من الفخار فى منطقة طرة على مقربة من القاهرة .

ونصل الآن إلى نقطة مهمة . هل كانت حروب الملك العقرب ومن سبقه من الملوك ضد الدلتا عندما كان الصعيد خاضعا للشمال فأرادوا التخلص من نيره فحاربوا وانتصروا واستقلوا بالصعيد كله ، أم أن الاتحاد الأول الذى تم حوالى عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد لم يدم طويلا وسرعان ما تفكك وعاد كل من شقى الوادى إلى استقلاله حتى بدأ ملوك الصعيد فى غزو الشمال وإخضاعه ؟ والجواب على هذا التساؤل لا يمكن إلا أن يكون اجتهادياً إذ لا يوجد دليل قاطع تحت أيدينا يساعدنا على إعطاء الجواب الحقيقى الذى لا يقبل الشك .

على أى حال فإن هذا الموضوع لا يغير من حقيقة الأمر شيئا كبيرا ، ولدينا الآن من الأدلة ما يكفى للقول بأن أقاليم الصعيد بدأت حوالى ٣٢٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب تكون بينها اتحاداً ، وأنها كانت تحارب وكانت تستولى على مدن وحصون وأن آخر ملك من هؤلاء الملوك كان نشيطاً وتمكن من إخضاع بعض سكان الدلتا وأهل الصحراء لسلطانه كما ذكر على دبوس قتاله . وهنا نقف قليلاً لنتساءل عن الدور الذى لعبه هذا الملك فى إخضاع الدلتا ، فهل نعتبره ، كما أراد أن يثبت بعض الأثريين (٢) ، إنه هو الذى تمكن من إخضاع الدلتا قبل ، نعرمر – منا ، وأنه هو صاحب الفضل فى توحيد مصر ؟ والجواب على ذلك هو أن هناك أكثر من عقبة واحدة تحول دون قبول مثل هذا الرأى قبولا نهائياً . فربما انتصر الملك العقرب على

جزء من الدلتا فقط ، وربما انتصر أيضاً على بعض قبائل البدو فى الصحراء ، إنما النصر الكامل جاء على يد « نعرمــر » الذى سمته النصوص المصرية فيما بعد باسم « منا » والذى اعتبرته المصادر المصرية القديمة أيضا مؤسس الأسرة الأولى المصرية، التى يبدأ بها عـصر الأسرات المصرى أو عـصرها التاريخى كما يسميه بعض الأثريين ؛ لأن مصر كانت قد عرفت الكتابة وأخذت تسجل حوادثها المختلفة على آثارها ، وأصبح اعتمادنا الأكبر منذ ذلك الوقت على ما خلفه المصريون أنفسهم مسطراً على آثارهم .

ولكن قبل أن نتحدث عن الأسرة الأولى يحسن بنا أن نلقى نظرة عابرة على أهم مصادر التاريخ المصرى التى نستمد منها معلوماتنا التى تكونت منها عناصر التاريخ الفرعونى منذ بدايته .

obeikandl.com

أهم مصادر التاريخ المصرى القديم

استكملت مصر إلى حد كبير ، كثيرا من مقومات حضارتها قبل ظهور الأسرة الأولى إذ كانت قد تقدمت فى أساليب الزراعة وعرفت الكثير من نظم الرى ، وبخاصة فى شق الترع ، وانتصرت على الصحراء والمستنقعات فاستقطعت الكثير منها وحولته إلى أرض زراعية .

وعرفت أيضاً استخراج بعض المعادن وبخاصة الذهب والنحاس من مناجم الصحراء الشرقية وأتقنت الإتقان كله قطع الأحجار الصلبة وصنعت منها الأوانى والقدور ، وعرفت صناعة التماثيل منذ عصر البدارى . وكانت التجارة رائجة ليس بين المدن والأقاليم المصرية بواسطة النيل فحسب ، ولكنها عرفت أيضا التجارة مع آسيا بواسطة السفن التى كانت تسير على مقربة من الساحل فتصل إلى موانىء الشاطىء الفينيقى وبخاصة ميناء جبيل ، كما كانت هناك أيضاً حركة ملاحية فى البحر الأحمر ، وكانت القوافل البرية تحمل منها وإليها السلع التجارية من جميع البلاد المجاورة حتى إيران والأناضول .

وأهم من هذا كله كانت قد توصلت إلى نظام إدارى مناسب وحددت اختصاصات بعض الوظائف وكبار الموظفين وكانت لها بعض تقاليد خاصة فى الفن وفى الدين .

ولا شك فى أن مصر بلد حبته الطبيعة بشبه عزلة عما جاوره من البلاد ، فالبحر فى شماله ، وإلى الشرق والغرب منه صحراء موحشة ، أما فى الجنوب فهناك شلالات فى النهر ، ولم تكن هناك ، أى فى الجنوب ، دولة قوية تخشى منها على نفسها ، ولكن رغم ذلك كله اتصلت تجارتها بما جاورها من بلاد كما كانت دروب الصحراء تحمل إليها كثيراً من المهاجرين الذين يأتون فرادى أو جماعات ليستقروا فيها .

وإذا أردنا التدقيق فى معرفة أصل المصريين أو أصل حضارتهم لما أمكننا الوصول إلا إلى نتيجة واحدة ، وهى أنها حضارة أصيلة دخلت عليها مؤثرات من الساميين الذين فى الشرق والحاميين الذين فى الغرب والجنوب الشرقى ، كما دخلت عليها أيضاً مؤثرات إفريقية من الجنوب . لقد أشرنا قبل الآن إلى حضارة بلاد الرافدين ورأينا أنه جاءت إلى مصر بعض مظاهرها فى العصر السابق للأسرة الأولى

مباشرة ، ولكن كل هذه المؤثرات كانت تنصهر فى بوتقة التجربة فى مصر فى ذلك العهد ، وسرعان ما يأخذ منها السكان ما يوافق حضارتهم فيمزجونه بما لديهم من ثقافة أو يعرضون عنه بعد حين لعدم ملاءمته لذوقهم . كانت لمصر فى ذلك العهد – أى عهد ما قبل الأسرات – تقاليد وطنية خاصة فى إختيار ملوكها كما كانت قد انتهت من وضع الأسس المختلفة فى الديانة وفى الإدارة ، ودانت بعقيدة ألوهية الجالس على عرشها ، ولكنها كانت قد توصلت أيضا إلى معرفة اختراع عظيم لا يمكن أن تتقدم الحضارة بدونه ، وهو اختراع الكتابة .

كان المصريون يعيشون آنذاك فى منازل مبنية بالطين أو من أغصان الأشجار أو النباتات كما عرفوا استخدام الحجر وإن لم يستعملوه على نطاق واسع ، وتقدموا فى كثير من نواحى الفن وأتقنوا حسن استخدام مياه النيل وعمل الجسور التى تحميهم من عدوانه ، واستأنسوا بعض الحيوانات النافعة لهم ، وبعبارة أخرى كانت الحضارة المصرية قد استكملت كل ما يلزمها ولم يكن ينقصها غير القوة الدافعة فتتقدم وتسير نحو الأمام ، وتحققت هذه الأمنية عندما ظهر زعيم قوى فى جنوبى مصر ، زعيم إقيم ، ثنى ، بين جرجا والبليانا الذى وحد البلاد كلها وأصبح أول ملوك مصر فى عهد الاتحاد الثانى ومؤسس الأسرة الأولى .

المصادر

يمكننا القول بوجه عام إن اعتمادنا الأساسى لدراسة تاريخ مصر وحضارتها على المصادر الثلاثة الآتية :

١ – الآثار المصرية وما تمدنا به من معلومات ، ويستوى فى ذلك ما هو مسطر على جدران المعابد والمقابر أو على التماثيل ولوحات القبور ، أو على قراطيس البردى أو التوابيت أو أى نوع من أنواع الآثار الأخرى سواء أكانت صغيرة أو كبيرة ، مكتوبة أو غير مكتوبة ، أى كل ما خلفه المصريون من معلومات ويشمل ذلك أيضاً ما كتبه المؤرخ المصرى مانيتون .

٢ – ما ورد فى بعض المصادر الأجنبية المعاصرة لفترات من الحضارة المصرية مثل ما جاء فى بعض المصادر البابلية أو الحيثية (الخيتية) أو الأشورية وغيرها .

٣ – ما كتبه رحالة اليونان والرومان الذين زاروا مصر ، وكتبوا وصفا لها وضمنوا كتاباتهم شيئاً من تاريخها .

ولكن كلا من هذه المصادر الثلاثة فى حاجة إلى كثير من التحليل والتدقيق قبل الاعتماد عليها أو اتخاذ ما جاء بها كحقيقة تاريخية . ففى النوع الأول من المصادر ، وهو المصادر المصرية الواردة على الآثار وهى أهم المصادر ، كثير من الأمور التى لا يمكن الاعتماد عليها كوقائع ثابتة لأنها كتبت لغرض معين وفى وقت معين ، وإذا لم تويدها مصادر أخرى لا يمكننا أن نقبلها إلا كقرينة من القرائن أو كمادة علمية تدخل فى مناقشة الموضوع .

لم يكتب قدماء المصريين قبل عهد مانيتون بقصد تسجيل الحوادث التاريخية كما نفهم التاريخ الآن ، ولكنهم كتبوا ما كتبوه لغرض آخر وهو تسجيل حوادث معينة لغرض خاص ، وسنعود إلى هذا الموضوع بعد قليل عند الحديث على إثبات أسماء الملوك .

أما ثانى المصادر وهو ما نجده فى المصادر الأجنبية المعاصرة ، فإنه بدوره يمثل وجهة نظر معينة وبخاصة إذا كان ذلك تسجيلا لنتائج معارك حربية على آثار أقامها أولئك الملوك . فمثل هذه النقوش سواء فى مصر أو فى غيرها تقام للإعلاء من شأن الملوك فتخفى الهزائم أو تحيلها إلى نصر ، وتبالغ فى نصر ضئيل فتجعل منه عملا عظيما جبارا ، ولهذا يجب أن نحتاط الحيطة التامة فى اعتمادنا عليها ، ويجب أن نقابلها ونقارنها بما جاء فى المصادر التى كتبها الجانب الآخر ، وعلى المؤرخ أن يوازن بين هذا وذاك ويحاول الوصول إلى ما عساه أن يكون أقرب إلى الحق . فقد جرت العادة مثلا فى بعض الممالك مثل الصين إلى ما قبل عصرنا الحاضر بقليل ، وفى أوائل هذا القرن ، على اعتبار ما يأتى إليهم من هدايا من أى مملكة أخرى أنه جزية يرسلها ذلك الشعب ، واعتبار أى خطاب من خطابات المودة التى يرسلها رؤساء الدولة الأخرى أنه تقديم للطاعة والخضوع .

أما ثالث المصادر وهو ما كتبه رحالة اليونان والرومان فيجب ألا نثق فيه الثقة كلها لأن الغالبية العظمى من هؤلاء لم يزوروا مصر إلا وهى فى أيام ضعفها . وكانوا يحكمون على ما يرونه أو ما يسمعونه من وجهة نظرهم هم ، وحسب عقليتهم وإدراكهم ، وتأثرهم بعادات بلادهم وديانتها ، فضلا عن أنهم لم يعرفوا اللغة المصرية ونقلوا ما سمعوه من أفواه محدثيهم وبعضهم من صغار الكهنة أو عامة الناس الذين يقبلون على مرافقة الزوار الأجانب كمحترفين أو متطوعين .

ولا شك أن كثيرا منهم تحروا الصدق فيما قالوا أنهم رأوه بأنفسهم مثل المؤرخ هيرودوت ، ولكن هناك أيضا كثيرين أساءوا فهم ما رأوه أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب فى تفسير أو تعليل ما سمعوه أو وقعت عليه أبصارهم .

وعلى من يريد الاعتماد على ما جاء فى بعض تلك المصادر خاصاً بمصر ، أن يضع فى ذهنه أن بعضهم كتب ما كتبه من وجهة النظر اليونانية ، وكثيراً ما كانت كتاباتهم فى أوقات اختلفت فيها مصالح بلادهم مع مصالح مصر أو كانت الثورات أو أسباب العداوة بين المصريين وغيرهم موغرة لصدور هؤلاء الناس ، فضلا عن أن بعض هؤلاء الكتاب نقل ما كتبه عن غيره ممن كانوا فى مصر أو ادعوا زيارتها . ولهذا يتحتم على المؤرخ ألا يقبل ما فيها من معلومات إلا بعد الحيطة الشديدة ليستخدمها قرينة أو قرائن عن حوادث معينة . وسيأتى ذكر هذه المصادر المختلفة فى كثير من المواضع عند الحديث على بعض حوادث التاريخ .

ويجب علينا أن نوضح فى هذه المرحلة من البحث أن مصدرنا الأكبر فى كتابة تاريخ مصر هو ما خلفه المصريون أنفسهم ، وإذا كانت بعض الوثائق ناقصة أو غير وافية فعلينا أن نسعى لإكمالها سواء من الوثائق الأخرى أو مما يستطيع المؤرخ أن يتصوره بعد دراساته المستفيضة لكل ما لديه من وثائق ومصادر ومعلومات تجعله يحس بإحساس العصر الذى جرت فيه تلك الحوادث .

وربما سأل سائل هل عرف قدماء المصريين فكرة التاريخ ، وهل خلفوا لنا وراءهم وثائق دونوا فيها تاريخهم الصحيح ؟ والجواب على الشطر الأول من السؤال أن المصريين كغيرهم من شعوب العالم لم يفهموا التاريخ كما نفهمه الآن أو حتى كما فهمه اليونان ، وإذا كانت فكرة التاريخ كما نعرفها الآن لم يكن لها وجود فى تلك العصور القديمة فلا شك أنه كان لديهم ما يمكن أن نسميه إحساسا بالتاريخ فإنهم لم يفهموا حاضرهم إلا فى ضوء ماضيهم كما انتشرت بينهم فكرة عامة وهى الإعلاء من شأن ما مضى من أيام واستلهام حضارتهم منها ومحاولة إحياء تقاليدها من آن لآخر .

وجوابنا على الشطر الثانى من السؤال أنهم خلفوا وراءهم وثائق بتاريخهم كما كانوا يتصورون التاريخ . فمنذ الأسرة الأولى نرى آثاراً يسجلون عليها بعض أعمال الملوك كما تركوا لنا أيضاً أكثر من وثيقة واحدة عليها إثبات بأسماء الملوك مرتبة ترتيباً زمنيا ، ووصلت بهم الدقة فى بعضها أنهم لم يرتبوا الملوك فحسب بل ذكروا مدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم .

ولنذكر الآن أهم المصادر المصرية عن أسماء الملوك وترتيبهم :

١ - **حجر بالرمو** : فى أواخر أيام الأسرة الخامسة المصرية أو ربما فى أوائل الأسرة

السادسة (١) ، كان يقوم فى معبد من معابد العاصمة فى منف حجر لا يقل طوله عن مترين ويزيد ارتفاعه عن سبعين سنتيمترا نقش وجهاه بنقوش فى سطور رأسية كتبت فيها أسماء جميع من حكموا مصر منذ أيام ما قبل الأسرة الأولى ، مع مدة حكم كل منهم، مقسما إلى سنوات وأهم ما حدث فى كل سنة . ولأمر ما حطم هذا الحجر إلى قطع صغيرة عثر حتى الآن على ست منها أكبرها وأهمها موجودة فى صقلية منذ ١٨٥٩ ونقلت إلى متحف مدينة بالرمو فى عام ١٨٧٧ وما زالت هناك حتى الآن (انظر شكل رقم ١٢) . ويوجد فى المتحف المصرى بالقاهرة أربع قطع صغيرة اشترت مصلحة الآثار ثلاثاً منها فى عام ١٩١٠ وعثر أحد خفراء المصلحة فيما بعد على القطعة الرابعة ملقاة بين الخرائب فى منف ، أما القطعة السادسة فقد اشتراها العالم الأثرى فلندرز پترى من أحد تجار الآثار فى القاهرة حوالى عام ١٩١٠ أيضاً وهى الآن فى لندن فى متحف الجامعة . وسواء أكانت هذه القطع الست من حجر واحد ، أو أنها من أكثر من حجر واحد – إذا كانت هناك حقيقة بصنع نسخ متماثلة من حجر الديوريت أقيم كل منها فى أحد المعابد المهمة – فإن هذا الأثر كان يحوى أسماء الملوك مبتدئا فى الصف الأعلى بجدول أسماء الملوك الذين كانوا يحكمون كلا من شطرى مصر أى الدلتا والصعيد ، وتحت كل منهم رسم ملك جالس وعلى رأسه تاج أحد البلدين ، وربما كان فى هذا الصف ١٤٠ منهم أو أكثر من ذلك(٢) . وآخر اسم

محفوظ على تلك القطع هو إسم الملك « نفر إر كارع » من الأسرة الخامسة . ونرى على إحدى القطع التى فى متحف القاهرة أن بعضهم يضع التاج المزدوج فوق رأسه مما جعل الباحثين فى التاريخ المصرى يؤمنون الآن بأنه كانت هناك مملكتا الدلتا والصعيد ، عاشتا مستقلتين فترة طويلة من الزمن إلى أن تمكن أحد ملوك الدلتا من إخضاع الصعيد وتوحيد مصر ، ولكن هذا الإتحاد وهو الإتحاد الأول أصابه الوهن وإستقل كل بنفسه ، أو ربما كان الملك الذى عرف فيما بعد باسم « منا » حاكما لأحد أقاليم الصعيد وثار على الدلتا وحاربها وإستقل بالصعيد ثم هجم على الدلتا فيما بعد وأصبح أول ملك لمصر الموحدة فى عهدها الجديد وهو الإتحاد الثانى . ولكن ليس لدينا ما يثبت هذا أو ذاك ، وعلينا أن ننتظر حتى تصل إلينا معلومات أخرى . وعلى أى حال فإن المصريين إعتبروا أن أولئك الذين حكموا قبل الأسرة الأولى أنصاف آلهة ، وأتباع حورس (١) وأحيانا يسميهم المصريون « المبجلون » كما جاء فى بردية تورين أو أنصاف الآلهة كما سماهم مانيتون ، وقد سبقهم حكم الآلهة على الأرض .

٢ – بردية تورين : حصل على هذه البردية الرحالة الإيطالى دروفتى Drovetti فى أوائل القرن التاسع عشر وقيل إنه عثر عليها فى منف . وكانت البردية فى حالة جيدة عندما تسلمها دروفتى ولكنها تهشمت بعد ذلك (٢) ونقلت إلى إيطاليا عقب الحصول عليها ووضعت فى متحف تورين منذ ذلك الوقت.

وكانت تحتوى هذه البردية على أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء الملوك وتحت اسم كل منهم عدد سنوات حكمه . وهى تبدأ بالآلهة الذين حكموا مصر وتستمر حتى نهاية عصر الفترة الثانية بما فى ذلك ملوك الهكسوس ، وتنتهى أسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشرة . وقد نشرت محتويات هذه البردية أكثر من مرة ولكن تعديلات كثيرة فى ترتيب أجزائها جاءت عقب ترميمها بواسطة الدكتور « إبشر » مرمم متحف برلين ، ونشرها الأثرى فارينا بعد الترميم عام ١٩٣٨ ولكن الأثريين جاردنر (A. H. Gardiner) وشرنى (Jaroslav Cerny) راجعا الأصل وأصلحا بعض قراءات فارينا ونشرا نتيجة أبحاثهما فى

نشرة خاصة وزعاها على بعض المتاحف والمكتبات والعلماء [١] . وهذه البردية هى دون شك من خير المصادر وأدقها ويعتمد عليها المؤرخون كثيراً فى ترتيب أسماء الملوك وعدد سنوات حكمهم ، وقد كتبت فى عهد الأسرة التاسعة عشرة وإن كان لا يمكننا معرفة السبب الحقيقى الذى دعا إلى كتابتها .

٣ - **تاريخ مانيتون** : وإذا كنا لا نستطيع أن نذكر السبب فى إعداد كل من حجر بالرمو وبردية تورين أو وقت كتابتها بالضبط فإن هنا مصدرا آخر فى المرتبة الأولى من الأهمية نعرف إسم مؤلفه واسم الملك الذى طلب منه كتابته والسبب فى ذلك. كان مانيتون (وورد إسمه فى إحدى البرديات مانيثوس) كاهنا مصريا فى معبد فى سمنود فى محافظة الغربية واشتهر بعلمه ومعرفته لتاريخ مصر ولغتها . وأراد بطليموس الثانى (حوالى ٢٨٠ ق.م.) أن يستفيد من علمه وذلك بتكليفه بكتابة تاريخ لمصر إستقى مصادره مما كان فى المعابد ومكاتب الحكومة من وثائق . ومما يبعث على الحزن أن تاريخ مانيتون الأصلى فقد فى حريق مكتبة الإسكندرية ولم يعثر حتى الآن على أى نسخة كاملة أو ناقصة منه ، وكل ما وصل إلى أيدينا ليس إلا مقتطفات من ذلك التاريخ نقلها المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى كتابه الذى سماه الرد على إبيون (Aginst Apion) مدافعاً فيه عن اليهود ضد ما كتبه إبيون الكاتب الإسكندرى ، والذى رمى فيه اليهود بكل شائنة ونقيصة ، فحاول يوسيفوس أن يمجد بنى جنسه فقال إن الهكسوس هم اليهود ونقل كثيراً من كتاب مانيتون مما إعتقد أنه يؤيد حجته .

ووصل إلينا أيضاً من تاريخ مانيتون جداول بأسماء الأسرات والملوك وعدد سنوات حكمهم فى مؤلفات بعض للكتاب المسيحيين وخاصة جوليوس الإفريقى Juluis Africanus (٢١٧ ميلادية) الذى نقل عنه الكاتب يوسيبيوس (٣٢٧ ميلادية) ، ولكن أفضل النصوص وأدقها هو ما جاء فى الكتاب المسمى Chronographia الذى قام بجمعه جيورجيوس سينكلوس Georgius Syncellus . وبالرغم من جميع الأخطاء التى حدثت فى النقل وما أصاب أسماء الملوك من تحريف ، وما سقط دون شك من بعض النصوص ، فإن ما وصل إلينا من تاريخ مانيتون مصدر من أهم المصادر لتاريخ مصر ولا يمكن الاستغناء عنه .

وهناك عدة مؤلفات عن تاريخ مانيتون وأحدثها هو مؤلف

W.G. WADDELL. Manetho (The Loeb Classical Library, Cambridge Mass. 1940)

٤ – ثبت الكرنك : ولا تقتصر معلوماتنا عن ترتيب ملوك مصر على حجر بالرمو وبردية تورين وتاريخ مانيتون ، بل لدينا أربعة أثبات مختلفة أولاها ثبت الكرنك الذى أقامه تحوتمس الثالث فى إحدى الحجرات الصغيرة إلى جانب بهو الأعياد فى معبد الكرنك ويوجد الآن فى متحف اللوفر ، نقله إلى فرنسا الأثرى الفرنسى بريس دافن Prisse d'Avennes عام ١٨٤٤ . وليس هذا الثبت جامعاً لأسماء جميع الملوك بل يحوى مجموعة مختارة منهم عددهم ٦١ ملكا . وقد تحطم أول اسم فى الثبت ولكن الاسم الذى يليه هو إسم الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ثم يليه بعض ملوك هذه الأسرة ثم الأسرات الخامسة والسادسة ، ثم أسقط الكاتب الأصلى ملوك عصر الفترة الأولى وعاد إلى ذكر بعض ملوك الأسرات الحادية عشرة ثم الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة ثم السابعة عشرة .

ولسنا نعرف السبب المقصود من إقامة هذا الثبت . فإن تحوتمس الثالث أقامه دون شك لغرض خاص ولهذا لم يذكر ، أو لم يذكر الكهنة الذين أقاموه باسمه ، ملوك الأسرات الثلاث الأولى ، وأغضى عن ذكر ملوك عصر الفترة الأولى وملوك الهكسوس ، ولكنه ذكر بالتفصيل إثنى عشر اسماً من ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ممن لم يشتهر إسمهم فى التاريخ . ومن المحتمل أن يكون للملوك المذكورين فى هذا الثبت دون سواهم صلة مباشرة بتحوتمس الثالث ، وربما كانوا من أجداده الذين تنسب إليهم عائلته (١) .

٥ – ثبت أبيدوس : وإذا كان ثبت الكرنك غير كامل وفيه بعض الاضطراب فإن هناك ثبتا ملكياً آخر فى معبد أبيدوس يزيد كثيراً فى أهميته عن ثبت الكرنك . فعلى أحد جدران معبد الملك سيتى الأول فى أبيدوس (حوالى عام ١٣٠٠ ق.م) . نرى هذا الثبت وقد وقف أمامه الملك رمسيس الثانى يقدم القرابين للملوك المذكورة أسماؤهم عليه وعددهم ستة وسبعون ملكاً .

وتبدأ الأسماء بملوك الأسرة الأولى فتذكر ثمانية ، ويتلوهم سبعة من الملوك الثمانية المعروفين لنا من الأسرة الثانية . فإذا ما وصلنا إلى الأسرة الثالثة نراه

يذكر خمسة من ملوكها ثم يذكر بعد ذلك ستة من الملوك المعروفين فى الأسرة الرابعة ، ثم ثمانية من الملوك التسعة المعروفين فى الأسرة الخامسة ، ويليهم ملوك الأسرة السادسة. ولم يفعل الملك رمسيس الثانى ما فعله تحوتمس الثالث الذى أسقف ملوك الأسرتين السابعة والثامنة بل نرى أسماء خمسة عشر ملكا منهم ، لم ترد أسماء بعضهم على أى أثر آخر ، ولكنه أهمل ملوك إهناسيا (الأسرتين التاسعة والعاشرة) ولم يذكر إلا ملكين فقط من ملوك الأسرة الحادية عشرة ، ولكنه ذكر جميع ملوك الأسرة الثانية عشرة وما عدا الملكة « سوبك – نفرو » آخر حكام هذه الأسرة .

ولم يذكر ثبت أبيدوس أى ملك من ملوك عصر الفترة الثانية بما فى ذلك ملوك الهكسوس الذين كانوا فى نظر ملوك مصر أجانب مغتصبين لحرية البلاد ، وبالتالى أنجاساً غير شرعيين . ويبدأ بعد ذلك بملوك الأسرة الثامنة عشرة فيسميهم جميعاً إلى أن يصل إلى الملك أمنحوتب الثالث فيتبعه بحور محب آخر ملوك الأسرة وأسقط « إخناتون » و « سمنخ كارع » و « توت عنخ آمون » و «آى» لأنهم كانوا فى رأيه ملوكا مارقين وخارجين على ديانة أمون ، وكذلك فعل بالملكة « حتشبسوت » إذ أسقط اسمها هى الأخرى لأن خروجها على التقاليد وأغتصابها العرش لنفسها جعلها ملكة غير شرعية فى نظر الأجيال التالية . ولم تقف أسماء الملوك عند حور محب بل ذكرت أيضاً الملكين اللذين سبقا سيتى الأول فى الأسرة التاسعة عشرة ، وينتهى الثبت باسم سيتى نفسه (١) .

٦ – ثبت سقارة : عثر على هذا الثبت فى مقبرة أحد الكهنة فى سقارة وإسمه «تنرى» الذى عاش فى أيام رمسيس الثانى ، وهو الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة .

وهذا الثبت مكتوب على الجانبين وكان عليه أسماء ثمانية وخمسين ملكا يبدأون بالملك « مر – بى – با » سادس ملوك الأسرة الأولى وينتهون بالملك رمسيس الثانى.

فسر بعض الباحثين وجود هذا الثبت وترتيب أسمائه على أساس صلة أصحابها بمدينة منف وأنهم الملوك الذين شيدوا فى معابد تلك العاصمة أو قدموا هبات لآلهتها . وربما كان الملك « مر – پى – با » هو أول ملوك الأسرة الأولى الذين أقاموا فى العاصمة الجديدة . وعلى أى حال فقد ورد اسم ملكين آخرين من ملوك الأسرة الأولى وثمانية من ملوك الأسرة الثانية وأربعة من الملوك الخمسة الذين حكموا فى الأسرة الثالثة . ومما يسترعى النظر أنه من المرجح جداً أنه كان مذكوراً على هذا الثبت تسعة ملوك للأسرة الرابعة ولكن مما يدعو إلى الأسف أن الأربعة الأخيرة قد تحطمت أسماؤهم . فإذا ما وصلنا إلى الأسرة الخامسة نرى أسماء ثمانية من ملوكها التسعة ولكنا لا نرى إلا أربعة فقط من ملوك الأسرة السادسة .

ولا يوجد على هذا الثبت أثر لملوك الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة ، ولا نجد فيه من ملوك الأسرة الحادية عشرة إلا إسمى الملكين اللذين وردا فى ثبت أبيدوس ، ولكنا نرى أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة كاملة بما فى ذلك الملكة التى حكمت فى آخر الأسرة ، وقد كتبوها هنا باسم العرش الخاص بها وهو « سوبك – كا – رع » .

ولا شك أن الشخص الذى اختار أسماء ملوك هذا الثبت كان متأثراً بما تأثر به زميله الذى إختار أسماء ثبت أبيدوس فإنهما معاصران لبعضهما .

ولهذا نجد أنهم أسقطوا جميع ملوك عصر الفترة الثانية كما أسقطوا إسم حتشپسوت وإخناتون ومن تلاه من عائلته ، وينتهى الثبت بأسماء الملوك الثلاثة الأول من الأسرة التاسعة عشرة وهم رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى[1] .

٧ – نصوص الأنساب : وكثيراً ما تساعدنا النصوص التى يكتبها بعض الأفراد عن تاريخ حياتهم فى معرفة تتابع بعض الملوك فى العصور المختلفة ، ولكن هناك نوعا خاصا من النصوص أخذ يظهر فى العصر المتأخر من التاريخ المصرى .

ولدينا عدد غير قليل من هذه النصوص ولها كلها شىء من الأهمية ولكن أهمها جميعاً ذلك النص الذى خلفه وراءه الكاهن « عنخف – إن – سخمت » الذى

كان كاهنا لكل من الإله بتاح وزوجته الإلهة سخمت فى الأسرة الثانية والعشرين أى حوالى عام ٧٥٠ قبل الميلاد .

كتب هذا الكاهن نسبا طويلا لعائلته على لوح من الحجر الجيرى كان فى متحف برلين (رقم ٢٣٦٧٣) ذكر عليه ستين جداً له ، وكتب أمام الكثيرين منهم أسماء الملوك الذين عاشوا فى أيامهم: وقد ثبتت صحة وجود الكثيرين منهم من مصادر أخرى . عاش ذلك الكاهن حوالى عام ٧٥٠ قبل الميلاد ولكنه رجع بأجداده إلى الأسرة الحادية عشرة حوالى عام ٢١٠٠ قبل الميلاد أى خلال فترة لا تقل عن ١٣٥٠ سنة . وقد فقد اسما أقدم جدين لهذا الكاهن مع النقوش الأخرى الخاصة بهما ، ولكن إسم الجد الثالث محفوظ وعاش فى عهد الملك منتوحوتپ الثانى من الأسرة الحادية عشرة . وتستمر الأجيال واحداً بعد آخر ، ويذكر بعض أسماء ملوك الهكسوس ولم يحذف عصر العمارنة الذى قامت فيه ثورة دينية على عبادة أمون وغيره من الآلهة إذ عاش له جدان فـــى عهد ، أمنحوتـــپ الثالث ، وتلاهم آخر فى عهد الملك ، آى ، الذى عبر صاحب النص عن عدم رضاه عنه بكتابة إسمه دون وضعه فى خانة ملكية . إذ جرت العادة منذ الدولة الحديثة على حذف إخناتون ومن جاء بعده من العائلة بما فيهم الملك آى نفسه من الأثبات الملكية لأنهم إعتبروهم مارقين عن دين البلاد .

ولا يخلو هذا النص من كثير من المآخذ . فقد أخطأ صاحبه فى أكثر من وضع كما ترك فجوات كثيرة فى بعض العصور ، ولكن ذلك كله لا يقلل من أهميته كمصدر تاريخى مهم هو وغيره من نصوص الأنساب (١) .

تلك هى أهم المصادر المصرية لدراسة تتابع الملوك على العرش خلال آلاف السنين التى جمعها قدماء المصريين فى صورة إثبات بأسمائهم ، ولكن الآثار المختلفة التى أقامها الملوك والأفراد الذين عاشوا فى أيامهم ، تمدنا بالكثير من المعلومات عن تعاقب الملوك وسنى حكمهم وصلة بعضهم ببعض .

ولا شك فى أهمية جميع هذه المصادر لدراسة التاريخ السياسى للبلاد ولكنها قلما تساعدنا على معرفة ما كان عليه الشعب أو ما كان يحدث من تطورات فى المجتمع أو فى الفنون المختلفة ، أو فى لمظاهر الثقافية والدينية بوجه عام ، وهى كلها على أكبر جانب من الأهمية لفهم الحضارة المصرية . ولدينا ولله الحمد مصادر

لا حصر لها تساعدنا فى تلك الدراسة وتمدنا بالكثير من المعلومات . فالمتحف فى جميع أرجاء العالم ملأى بما خلفته الحضارة المصرية فى جميع العصور من تماثيل ، ولوحات ، وتوابيت ، وحلى ، وأوان ، وأدوات منزلية ، وأدوات الصناع وذوى الحرف المختلفة . ولدينا التمائم والتعاويذ وقراطيس البردى وغيرها وعليها الكتابات المختلفة ، بعضها قطع أدبية والبعض الآخر نصوص دينية أو سحرية ، وبعضها يحتوى على نصوص طبية أو رياضية.. إلخ .

ولم يقف الأمر عند ذلك بل أن المصريين ، فى جميع العصور ، أبوا إلا أن يسجلوا مظاهر حياتهم على جدران قبورهم أيضا . فأينما ذهب الإنسان فى مصر سواء على مقربة من العاصمة القديمة منف ، أى فى سقارة والجيزة وما جاورهما ، أو ذهب إلى بلاد مصر الوسطى أو فى الصعيد ، وبخاصة فى طيبة عاصمة مصر فى عهد الإمبراطورية ، وجد مقابر عنى المصريون بتغطية جدرانها بمناظر الحياة اليومية حينا والحياة الأخرى حينا آخر ولم يقتصر الأمر على مصر وحدها بل كثيراً ما نرى فى تلك المقابر أو على جدران المعابد مناظر أو نصوصا تتعلق بشعوب البلاد الأجنبية الذين إتصلت بهم مصر فترى أصحابها يلبسون ملابسهم الوطنية ، وقد رسمت فى أيديهم أو على مقربة منهم مصنوعات بلادهم المختلفة مما كانوا يحضرونه إلى مصر كجزية أو هدية يقدمونها إلى الجالس على العرش أو للإتجار بها مع أفراد الشعب .

وهذه الملايين من الآثار الصغيرة ومئات الآلاف من التماثيل واللوحات والتوابيت وقراطيس البردى والأوستراكا (اللخاف) وآلاف المقابر من جميع العصور هى مصادرنا الأصلية لدراسة الحضارة المصرية . وقد إهتمت المتاحف المختلفة بنشر المهم من مجموعاتها كما إستطاع العلماء ترجمة أكثر النقوش المعروفة وأصبح كل ذلك تحت تصرف الباحثين فى تاريخ المصريين وحضارتهم (١) .

ومهما قيل عن نتائج الحفائر وما ظهر منها حتى الآن فلا يزال أمامنا الكثير من المناطق الأثرية لم يكد يمسه أحد وبخاصة فى الدلتا وفى الصحراء ، كما أن أكثر المناطق الأثرية فى مصر الوسطى ما زالت تحتفظ بأكثر ما أبقى عليه الزمن من مخلفاتها ، حتى طيبة نفسها عاصمة الإمبراطورية فإنه لم يتم حفرها أو بحثها البحث العلمى الكافى ، ولهذا يمكننا القول بأنه ما زال أمام علم الآثار المصرية وقت طويل ربما إمتد إلى أكثر من بضع قرون قبل أن يستطيع علماء الآثار أن يقولوا بأنه لم يعد

هناك مزيد من البحث ، وقبل أن يقول المؤرخون إنهم قد قالوا كلمتهم النهائية فى تاريخ مصر ، وأنه لم تعد هناك فجوات فى ذلك التاريخ .

يكفينا هذا القدر من الإشارة إلى مصادر التاريخ السياسى للعصر الفرعونى ، ومصادر التاريخ والحضارة بوجه عام ، ولننتقل الآن للحديث عن أقدم العصور التاريخية فى مصر وهو عصر الأسرات المبكر أو العصر العتيق .

obeikandl.com